تاريخ الاسلام الكبير

تأليف المستشرق الايطالي انكونت كايتاني

﴿ تمهيد ﴾ لقد اصبح الاستشراق فرعاً مهماً من فروع الاختصاص في الغرب ، واضحى علماؤه من الرجال الذين لهم كلمة مسموعة في ميدان الحضارة والسياسة ، لاسيما بعد احتكاك الشرق بالغرب ، وتوثيق عرى الروابط الاوربية بينهما ، زد على ذلك المصالح التجارية والاستعمارية وهي بيت القصيد في عالم السياسة العصرية . من اجل ذلك لا تسير في أية مملكة من ممالك الغرب الاّ وتجد جمعيات كبيرة غايتها نشر كل ما لهُ صلة بالشرق والشرقيين ، وعلماء افاضل وقفوا حياتهم للبحث والتنقيب بين طيات الكتب ومعالم الآثار التي تظهر ثقافة الامم الشرقية . وقد كان ولا يزال انكونت كايتاني المستشرق الايطالي في مقدمة هؤلاء الافاضل المعاصرين الذين برزوا في هذا المضمار ، و بزوا اقرانهم في كشف النقاب عن حقيقة الثقافة الشرقية ، فعكف منذ حداثته على درس التاريخ الاسلامي ، وولع بجمع الكتب الشرقية النادرة ، فكانت مكتبتهُ من انفس المكاتب في الغرب ، وقام برحلات متتالية في الشرق والغرب درس خلالها نفسية الامم الاسلامية واستنطق آثارها الخالدة ، ثم عاد الى وطنهِ مكبًّا على وضع كتاب في تاريخ الاسلام ، فعمل مدة ثلاثين عاماً على جمع شتات موادهِ المبعثرة هنا وهناك الى ان اتم مهمتهُ فجاء سفرهُ في عشرة مجلدات ضخمة ، وهو اغنى كتب التاريخ التي بحثت عن الاسلام ، وكفاهُ فخراً بذلك

﴿ عوامل التأليف ﴾ ذكر انكونت في مقدمة كتابهِ العوامل التي حملتهُ على وضع هذا التاريخ فقال بايجاز : « ان الديانة الاسلامية هي اقوى دين في العالم بعد المسيحية ، والمسلمون يعملون بقوة ايمانهم على صد تيار المسيحية ، فوقع من جراء ذلك تضاد بين هاتين الديانتين ، ما زالت اثارهُ باقية الى عصرنا الحاضر ، وسيبقى كذلك قروناً عديدة ، ما دامت اوربا المسيحية تعجز عن نشر ثقافتها بين المسلمين رغم الوسائل الفعّالة التي تمتلكها

« وليس من شك في ان هذا النضال يفتح امام المؤرخ ميداناً فسيحاً للدرس والاستقراء ، فيجد بين يديهِ اطناناً وقناطير من المواد ما يرحت بحاجة الى البحث والتنقيب ومن المؤسف ان تذهب الكنيسة الى ان ظهور الاسلامية كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق الكثيرين من اتباعها هذه الديانة الجديدة ، على حين ان الامر بعكس ذلك ، فقد ادت الديانة الاسلامية بحسب طريقي غير مباشر خدمات جلى الى

المسيحية ، اذ لو لم تظهر الديانة الاسلامية ، وقدّر للمسيحية الارثوذكسية الجامدة التي يعتنقها الاروام والروس والتي لم نقم اي دليل على نهوضها — ان تبقى مهيمنة منذ ذاك التاريخ الى هذا اليوم ، وحالت دون سطوع مدنية العرب والعجم فماذا يكون مصير غربي آسيا واوربا في القرون الوسطى المظلمة ؟ هذا امر ليس في مقدورنا البت به . أوَلم تحل النهضة البروتستانتية التي ظهرت على الاثر دون تدهور الارثوذكسية في هوة الانحطاط ؟ بيد ان هذه الخدمات التي قامت بها الاسلامية نحو المسيحية قد كادت ان تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين اتباع هاتين الديانتين ، فحجب وجه الحقيقة عن اعينهم ، وورث الابناء والاحفاد الحقد الشديد ، والتعصب الذميم ، وبقي الامر هكذا دواليك حتى اواسط القرن التاسع عشر حين سطعت الترعة العلمية الحرة ، فزال بسطوعها هذا الحقد من القلوب ، واصبح في المقدور درس الديانتين درساً علمياً محضاً لا اثر للتعصب فيه . بيد ان لدراسة التاريخ الاسلامي ميزة خاصة ، قد لا تجدها في غيرها . فان الوثائق الحقيقية التي بين ايدينا عن مؤسس هذا الدين اندر ان تجد امثالها في الديانات الاخرى ، ومن شأنها ان تساعدنا عن طريق غير مباشر على تفهم منشإ الاديان ، وعلى كشف الحقائق عن الاوضاع المسيحية الاولى التي لا تزال مجهولة رغم تقدم ظهورها عن الاسلامية مدة ستة قرون . فتاريخ عيسى وما ورد بشأنه في الانجيل ناقص لا يشفي الغليل ، اما حياة محمد فان لدينا منها قسماً معاً حقيقياً ، بحيث تحمل المؤرخين المعاصرين على الاعتقاد بان لمحمد شخصية بارزة في تاريخ البشرية ، وانهُ منشرع كبير احدث اعظم انقلاب في الاخلاق والسياسة بعد المسيحية »[1]

﴿ طريقتهُ في التأليف ﴾ رتب الكونت تاريخهُ حسب السنين والايام ، شأنهُ في ذلك شأن اكثر المؤرخين من العرب ، ولكنهُ اختط في وضعهِ خطة خالف فيها سنن المتقدمين والمتأخرين ، وهي خطة صعبة المنال ، عزيزة المرتقى ، فلا يتناولها الاَّ من اودع الله في نفسهِ قوة من الارادة والعزم لاتني . وانا نورد هنا نبذاً من مقدمتهِ لنفهم هذه الخطة التي مشى عليها واهتدى بها قال : « ان المقصد الاساسي من وضع هذا الكتاب هو جمع مصادر التاريخ التي تتعلق بالمسلمين منذ ظهور ديانتهم الى حين انطفاء جذوة ثقافتهم في عهد الترك العثمانيين لتكون معيناً يستقي منها المؤرخون والمستشرقون . لان الكتب العربية والتركية والفارسية التي تبحث في مثل هذه المباحث قد يعثر معظمها في كافة انحاء المعمور ،

(١) ج ١ ص ٧ — ٢٣ الترجمة التركية

وصعب تناول الاخر لندرته او غلاء ثمنه، فقمت من اجل ذلك برحلة طويلة للاطلاع على هذه المؤلفات وعملت على ترتيبها وتنسيقها، وزدت عليها الابحاث التي اخرجها المستشرقون مع شروح وتفاسير رأيت الحاجة ماسة اليها. وهذا ما دعاني لان اتكب عن وضع تاريخ بمعناه الحقيقي - و بعبارة صريحة انني لم ابدل من المواد شيئاً، ولا زدت عليها افكاري، وانما عملت على نقل هذه المواد من مصدرها بكل امانة فنقلتها حسب تاريخها، على انني اضطررت الى التعليق على موادها القديمة. « ثم حاولت ان لا ادع التباساً بين المصادر، القديمة منها والحديثة، فنقلت متونها بالحرف الواحد اللهم ما خلا الالفاظ الادبية العفانة فقد حذفتها. ووضعت تمهيدات لقسم من الحادثات تنير السبل للباحثين عن الحالة الاجتماعية والسياسية والدينية. والحقت في منتهى كل عام جدولاً باسماء الوفيات من الفقهاء والعلماء والادباء مع الاشارة الى الاعمال التي برزوا فيها، والى المصادر التي يرجع اليها في تراجمهم»[1]

وقال في مقدمة المجلد الثاني من كتابه: « ابدأ كتابي من السنة الحادية عشرة هجرية، وقد ذكرت في مقدمة المجلد الاول النهج الذي انتهجته في التأليف، والآن اعود فاقول ان هذا الكتاب ليس تاريخاً بمعناه الحقيقي، ولا هو شبيه بما كتبه مومسن وغره غوريوس عن تاريخ روما، بله بان يسمى تاريخاً اسلامياً، لان جل همي كان منصرفاً الى جمع وترتيب المواد التاريخية كما هي واردة في مظانها، فلم اشأ ان انتهج في ترتيبها مناهج الفيلسوف المؤرخ، وانما بذلت جهدي في وضعها على طريقة تذلل الصعبات امام المؤرخين، فتكون معيناً يرجعون اليه في تآليفهم

« وقد ادخلت في هذا المجلد تحسينات جمة رأيت الحاجة ماسة اليها، منها جدول عام للحوادث المهمة، وآخر لمعرفة تقويم الايام والسنين العربية وما يقابلها بالافرنجية وفهرس مطول للمواد وآخر للاعلام والحوادث على حروف الابجدية، ورسوم وخارطات موضعية وجغرافية. وسأضع في نهاية الكتاب فهرساً عاماً بمثابة معلمة صغيرة يبحث في التراجم والجغرافيا والتاريخ واللغة، وآخر باسماء المصادر التي رجعت اليها في حين التأليف»[2]

وقد وضع الكونت مقدمة لكتابه عن حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم جاءت في مجلدين[3] قال عنها في تمهيده « وجدير بنا قبل الانتهاء ان نشير الى ان بدء تاريخنا يصادف يوم وفاة النبي ولا يغرب عن البال ان تاريخ محمد وحده يتطلب مجلداً ضخماً،

(١) ج ١ ص ٢٦ — ٣١ (الترجمة التركية) (٢) ج ٥ ص ٧ — ١٠ (الترجمة التركية)
(٣) بلغت صفحات المقدمة في الترجمة التركية (٢٥٠٠) في سبعة مجلدات

ونحن ما ذكرنا قط في الاقدام على ذلك. بيد ان بين محمد وبين الدين الذي اسسهُ رابطة قوية لا يمكن التغاضي عنها في مقدمة تاريخ كتاريخ الاسلام ، ولذلك اتينا على ذكر شيء منها بطريقة موجزة [1] »

﴿ ترجمة الكتاب ﴾ طبع الكونت من تاريخ الاسلام نسخاً محدودة وزعها على اصدقائهِ من المستشرقين واضرابهم فبقيت الفائدة منهُ محصورة بفئة دون اخرى ولم تنج من جراء ذلك للكثيرين من محبي التاريخ نهزة لمطالعتهِ ، الى ان جاء حسين جاهد بك الكاتب التركي الشهير وصاحب جريدة (طنين) فعمل على ترجمة هذا الكتاب الى اللغة التركية ايام اقامتهِ في مالطه مبعداً ، فطبع من هذه الترجمة الى حين كتابة هذه السطور ثمانية مجلدات تحتوي على ثلاثة آلاف صفحة ومائتين وخمسين صفحة من الحجم الوسط بحرف دقيق ، وهذا القسم هو عبارة عن مجلدي المقدمة والقسم الاول من المجلد الثالث من الاصل الطلياني . فاذا قارنا حجم هذه المجلدات المترجمة بالمجلدات الباقية ظهرت ضخامة الكتاب ، وانهُ قد يستوعب ما بين العشرة آلاف والخمسة عشر الف صفحة

ثم اذا تصفحنا فهرست المصادر [2] التي استقى منها المؤلف في تأليفهِ تبينا عظم الجهد الذي بذلهُ الكونت ، والمشاق التي تجشمها في اخراج كتابهِ الى عالم الوجود فجاء كتابهُ فريداً في بابهِ ، رغم كونهِ مشوباً بهنات وسقطات كثيرة تحتاج الى نقد وتمحيص ، كنا نود ان ينزه قلم المؤلف عنها ، فكان شأنهُ في ذلك شأن المستشرقين الذين يجهلون نفسية الشرق عامة والعرب خاصة ، لاسيما ما يتعلق منها بالتدين والاديان . بيد ان هذه الهنات ليست بالشيء الذي يذكر اذا قيست بطرافتهِ وفوائدهِ ، فهو من هذه الوجهة جدير بالتعريب ، لندرة ما يضارعهُ ومجاراتهُ في اللغة العربية من كتب التاريخ

وبعد كتابة ما تقدم اجتمعت حين مروري بالقطر المصري بالصديق الاديب السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلة الزهراء فحدثني بانهُ اعتزم تعريب هذا الكتاب من اللغة التركية التي يحسنها وطبعهُ بعد تقديم والتعليق عليهِ ، وقد علمت أنهُ لن يقتصر في النقد على نفسهِ فحسب ، بل سيكلف فريقاً من العلماء بوضع هذه الردود كلاً حسب اختصاصهِ ، وهي خطة قويمة قيمة ، نتمنى ان يبر الصديق بوعده ، وهو فاعل ان شاء الله

مكة المكرمة رشدي الصالح ملحس

---

(١) م ١ ص ٣٢ (الترجمة التركية) (٢) ذكر في مقدمة المجلد الاول فهرساً للمصادر استوعب ٣٢ صفحة وفي مقدمة المجلد الثاني فهرساً آخر به ٣٠ صفحة